عبرة من كتاب :

حذار يا سيدتي (*)

للأستاذ سعيد الأفغاني

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومناصراتها السياسية ، وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين أودعك موصياً أن تجعل بالك أبداً — كلما قرأت التاريخ — إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شيء أحسنه ، وتربأ بنفسك وبأمتك أن تقاصر في تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارىء هذا الكتاب ، تنقذاننا مما نحن فيه اليوم من تخبط ، وتنيران لنا طريقاً طالما تعسفنا في المتاهات دون أن نهتدي إليه.

أما الأولى : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفها في المنازعات السياسية . إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بعواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن . إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استغلال حميتهم وتحوتهم ومشاعرهم ، وهذا السلاح غير حميد في العواقب ولا يصح استعماله بحال . وقد أبنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغير كله ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقي مباركاً ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية ...

وكان الله الذي جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى ، كلفتهم كل تلك الدماء المهراقة ، وفجعتهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعاظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس ... ليعلموا : أن لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بامرأة ، لقام بعائشة أم المؤمنين ، تلك السيدة الحصيفة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة والصلاح ... ما لم يؤته رجال كثيرون مجتمعين ، والتي جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفرق في العدد المديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجمل مناراً في تاريخ المسلمين : كلما نزغ بهم نزغ من تقليد أعمى لغيرهم من الأمم ؛ أو مس من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أو هموا أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلقت له ... قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في صدر تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعيدها عبثاً ، أو أن نهرق في سبيلها ثانية دماء جديدة ونخرب بيوتاً عامرة ... ومن لنا مع هذا بمثل عائشة .

وليذكروا أبداً أقوال عائشة بعد ما عاينت هول ما جرته مناصرتها السياسية على الأمة من ويلات ، إنها قضت عمرها حسرة وندامة ، حتى أذابت الحسرة قلبها وكبدها وحتى قتلها الحزن قتلا . وفي هذه الكلمات البليغات منها عبرة لنا أي عبرة :

« ليتني لم أخلق » ، « ليتني كنت شجرة » ، « ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة » وقد كانت آخر كلماتها التي ودعت بها الحياة قولها : « إن يوم الجمل معترض في حلقي ، ليتني لم أخلق »

* * *

إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين تجد وقتاً فاضلاً عن شؤون التربية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيراً ورحمة وإحساناً . هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب في وسع المرأة أن تلجها فتمارس أموراً عظاماً وتبذل مجهوداً مشكوراً يعود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر.

أمامها من ميادين الخير : التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات جنسها بالعلاج والدواء والطعام والكساء . وفي مجتمعنا من المحتاجات ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بحاجتهن عشرات المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل في بنات جنسها ، فلتنشىء لهن المعاهد ذوات المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لها برامج الذكور (ببعض التعديل) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى

(*) الفصل الأخير من كتاب (عائشة والسياسة) تصدره لجنة التأليف والترجمة والنشر قريباً

الآن لم نقم التعليم الصالح للبنات [1]

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء (اليتائم) وتعهد أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة ...

ويجب أن ينشأ فيهن التخصصات فى جميع الفروع التى يحتاج إليها النساء والأطفال، وأن يكون منهن العدد الوافى بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء فى علاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخلية والجلدية وفى حاجات التوليد .

فإن كان ولا بد من زيادة فإلى المساهمة فى كفاح ما يتفشى فى المجتمع من امتهان المرأة وإشقائها عن طريق البغاء والقمار والخمور وغيرها من المفاسد التى ضاق بشرورها المفكرون فى الغرب والشرق ...

لدى المرأة إذن كثير من أعمال الإحسان تنتظر من يقوم بها، وفى ذلك الخدمة المخلصة للأمة وإعمارُ البيوت وإفاضة الخير والسعادة فى المجتمع ...

ونحمد الله على أن فى فضليات نسائنا من تحاول سد هذه الثلمة ، إلا أن نسبتهن قليلة جداً بالقياس إلى اللائى تتكبن الجادة متخبطات على غير بصيرة ، فهجرن بيوتهن واكلات أمورهن إلى الخوادم ، وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أسرهن وأمتهن إلا بالضرر الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات ساهرة مخجلة ، وغشيان مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ، وعقد مؤتمرات لا يبلغن فيها أمراً نافعاً ، بل كثيراً ما يرجعن وقد سبقتهن أشائم الحوادث وأسوأ الأخبار ... مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم ... رحلت بخزية وتركت عاراً

يقلدن بذلك نساء ضيع عقلاء أممهن من أحوالهن [1] وسقط مقامهن فيها من كثرة هذا التبذل والعبث ، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوثن من سمعة المرأة عامة . ليتنا إذا جئنا بالتقليد اخترنا من نقلد ، ففى كل أمة من فضليات النساء النافعات من يحسن الاقتداء به ، ولكننا نتقى أحط المبتذلات ثم نسبقهن فى الابتذال أشواطاً يخجلن هن أنفسهن من السعى إليها .

وأبعد من هذا ، أننا إذا أممنا فى البيت وما يحتاج إليه تدبيره على خير نسق من علم واسع غزير فى الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف ورعاية ذلك كله .. وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إمضائه لا يكاد يبقى للمرأة القديرة ذات المواهب الجمة من فراغ أو جهد فكيف المتوسطات بله الضعيفات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة) ليتضاءل أمامه — فى اعتقادى — كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة .

وعلى المرأة الجادة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن

(١) ينبغى أن تكون أكثر مواد هذا التعليم بحوثاً واسعة تجريبية فى كل ما تحتاج إليه الأم فى الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين وحسن العشرة ... لا خليطاً غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة . ولتجعل التاريخ الذى يدرسنه مملوءاً بسير الذين ضربوا المثل العليا للبشر فى سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس ، وفى الفضائل العالية ممن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للانسانية حماتها الأبطال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء . ولتجتنب شحنه لهن بأخبار القلاقل والاضطرابات والفتن والحروب ومثل الفساد والطغيان .

(١) ووددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للفتوة اللاتى يطالبن بالحقوق السياسية فى أوروبا وأمريكا واللاتى استغرق (نشاطهن) الاجتماعى كل وقتهن ، فلل فى أعماق نفوسهن هوى سحيقة ومهارات ألمية وعللا وشذوذاً ... وشعوراً صارخاً بنقص ماثل لأعينهن كيفما توجهن ، فآثرن تناسيه والهرب منه بذلك (النشاط الإجتماعى) . والطريف أن هؤلاء لم يكثر عددهن إلا فى هذه السنين الثلاثين الأواخر ، حين فقدت أوروبا الشعور بدفء الأسرة ونعيمها وروحها ، وخلت البيوت من جوها الجميل الجذاب ، جو التآلف والاجتماع والتحاب والتعاطف ، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنان بعد أن تشرد أفراد الأسرة وتبعثروا فى المطاعم والمقهيات . فلو كان بناء الأسرة متماسكا متحابباً كعهده الأول ، ما كان للطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتمثيل السياسى وما إلى ذلك . وإنما أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ فى روسيا السوفيتية ، حيث يراد إقامة مجتمع لا بناء للأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضواً عاملا فى أسرة ثم تكون مندفعة فى تيارات السياسة وما إليها فى وقت معاً .

ووددت أيضاً لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللاتى أنعم الله عليهن بالزواج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلا ، ثم أحصوا نسبة الجميلات منهن ، ثم .. ثم .. إنى لأخشى أن تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمهن الله الجمال والزوج والولد ، فنقمن على المجتمع نظامه ، وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها على الأرض ، وآلين على أنفسهن ألا يضمن الحرب حتى يعم العدل وجه الأرض ، وما العدل عندهن إلا هدم الأسر وأنظمة الزواج ، وسلطان الضمير ، ونحو السعادة جملة ...

تشارك فى شرف الخدمة فيها ، على شرط واحد : هو أن تتم كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولا ، وإنما يكون التطوع والصداقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد .

* * *

هذا ، ولست أقول إن المرأة لا نفع منها فى باب السياسة ، أستغفر الله ، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط : هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشىء عليها أولادها ، فما فى امرأة فرطت بفضائل دينها من خير قط . والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جانحة على الآداب النسوية التى شرعها الله . والدين للمرأة هو كل شىء فى نظر زوجها وولدها وأسرتها والناس أجمعين ، فإذا جاهرت بشىء من الخروج عليه فقدت كل احترام فى النفوس ، وانتقلت نظرة الناس لها دفعة واحدة من التقديس إلى الزراية .

إن من لم تكن أمينة على دينها لن ينتظر منها إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها ، مثلها فى ذلك مثل الرجال : رق دينهم فلما مارسوا الشؤون العامة مالئين الدنيا صخباً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم ، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة ، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفاً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وغلاء وإهداراً للكرامات والقيم وتضييعاً للأمانات والحقوق . وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر ... ومن مات وازعه الدينى ونسى يوم الحساب فلن يردعه عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب ...

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات — إلى حد بعيد — عن هذا الخزى الذى ارتطموا فيه ، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب . لقد حرمتهم النشأة الدينية الفاضلة فلم يعرفوا لذتها ، ولم يتعهدن ذممهم وأخلاقهم ففقدوا فى أنفسهم الكرامة الإنسانية ، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب ، فهم البلاء البلاد والعباد ...

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غير دين ، وتعظم المصيبة بها ، وتستفحل آثار شرورها فى مستقبل الأمة وسلامة المجتمع

فلها إذن آثار بعيدة فى السياسة ، وهى تسدى لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكاية ، لا بنفسها مباشرة فقط ، ولكن بنفسها وبما تنشىء عليه أبناءها سياسى الغد من فضائل أو رذائل ، وبما تنال ضمير الناشىء ووازعه الدينى من عناية أو إهمال

* * *

ذلك وقد أعان على تردى المرأة فى الخروج على أنوثتها وفطرتها فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا نصحاً . دفعهم الرياء المنشوش على أن يغرقوا فى مجاملة المرأة المشتطة الطائشة ابتغاء العبث بها وبكرامتها ، فحملوها فوق ما تستطيع من السخط على الطبيعة التى فيها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق ، وإلى ما يعزها فى المجتمع سيدة بيت ومربية أجيال . وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوى بها الطيش فى مكان سحيق فتفقد ما لها من حرمة هى ملاك أمرها كله فى المجتمع . ليتنا فى غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضى ونسير غير متخبطين : نبصر مواطىء أقدامنا ونتقى المزالق ، ونجند كلا فى ميدانه الذى يصلح له . لقد تداعت علينا الأمم ، وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق ، وغزينا فى أخلاقنا وبلادنا وأموالنا ... وليس فى جهودنا فضل ننفقه فى رد العابثين عن عبثهم ؛ فليتق الله حملة الأقلام وليصونوا الشاردات عن القطيع ، وليرجموا بهن عن طريق وضعن أقدامهن فى أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولا ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا .

وما الانهيار السريع الذى قضى على بعض دول الغرب المظلمى فى مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة ، ببعيد فينسى . ولنا فيه درس وموعظة وبلاغ[1]

سعيد العريان

(١) أما العبرة الثانية فقد كنا نشرناها فى العدد (٧٠٣) من الرسالة بعنوان (من نكبات المرأة فى تاريخنا) .